التقديم والتأخير في القرآن الكريم

أسبابه وأنواعه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد

فالقرآن الكريم هو كتاب الله الخالد الذي تكفل الله تعالى بحفظه ، قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ، وهو أعظم معجزة وأرقى حجة وبينة دالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد أودع الله تعالى ألفاظ هذا الكتاب العزيز من ضروب الفصاحة وأجناس البلاغة، وأنواع الجزالة، وفنون البيان ، وحسن الترتيب والتركيب، وعجيب السرد، وغريب الأسلوب ، وعذوبة المساغ ، وحسن البلاغ ، وبهجة الرونق ، وطلاوة المنطق ، ما أذهل عقول العقلاء، وأخرس ألسنة الفصحاء والبلغاء.

لذا استخرت الله تعالى وعقدت العزم على أن أكتب في جانب من جوانب إعجاز القرآن ، وهو موضوع " **التقديم والتأخير في القرآن الكريم :اسبابة وانواعه**" ، وذلك من خلال النقاط التالية:

أولاً : أهمية هذا العلم:

التقديم والتأخير أحد الأساليب الراقية في بلاغة العرب ، وهو يدل على تمكن صاحبه في الفصاحة ، وملكته في الكلام ، وانقياد ذلك الكلام له، كما أن له تأثيراً طيباً في قلوب سامعيه ، ووقعاً حسناً في

آذانهم ، ومن هنا خاطب القرآن الكريم العرب بهذا الأسلوب الراقي ، فوجدوا فيه معجم بلاغتهم ، وقاموس فصاحتهم ، فاعتنوا به أيما اعتناء حفظاً وقراءة وسماعاً.

ولما كان هذا الموضوع من الأهمية بمكان فقد نبه إليه كثير من العلماء حيث يقول شيخ البلاغة الإمام

عبد القاهر الجرجاني (ت ٤٧١هـ) في كتابه دلائل الإعجاز (هو باب كثير الفوائد ، جم المحاسن ،واسع التصرف ، بعيد الغاية ، لا يزال يفتر لك عن بديعة،ويفضي بك إلى لطفية ، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه ، ويلطف لديك موقعه ، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك ، أن قدم فيه شيء ، وحول من

مكان إلى مكان)(١) ويقول الإمام القرطبي (ت ٦٧١هـ) في إحدى وجهي النهى عن التفسير بالرأي. **الوجه الثاني** : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل ، فيما يتعلق بغرائب القرآن ، وما فيه من الألفاظ المبهمة ،والمبدلة ، وما فيه من الاختصار ، والحذف ، والإضمار ، والتقديم والتأخير ، فمن لم يحكم ظاهر التفسير ، وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية ، كثر غلطه ،ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي)(٢) ،ويقول الأمام الزركشي (ت ٧٩٤هـ) ، هو أحد أساليب البلاغة ، فإنهم أتوابه دلالة على تمكنهم في الفصاحة ، وملكتهم في الكلام ،وانقياده لهم ، وله في القلوب أحسن موقع،وأعذب مذاق (٣) ويقول الشيخ أحمد المراغي : الألفاظ قوالب المعاني ، فيجب أن يكون ترتيبها الو صفي بحسب ترتيبها الطبعي ، ومن البين أن رتبة المسند إليه التقديم ،لأنه المحكوم عليه ، ورتبة المسند التأخير ، إذ هو المحكوم به ، وما عداهما فتوابع ومتعلقات ، تأتي تالية لهما في الرتبة ، ولكن قد يعرض لبعض الكلام من المزايا ما يدعو ؟ إلى تقديمه ، وإن كان حقه التأخير ، فيكون من الحسن تغيير هذا النظام ،

ثانيا: أسباب التقديم والتأخير

قد تكلم علماء البلاغة وعلماء الدراسات القرآنية عن أسباب التقديم والتأخير ، والذي يهمنا – في هذا المقام – هو ما قاله علماء الدراسات القرآنية لأن دراستهم كانت مقتصرة على آيات القرآن الكريم ، فقد جمعوا عددا – ليس بقليل – من الآيات، وقاموا بدراستها ، من حيث أسباب التقديم والتأخير فيها ، وأنواعه ، وأغراضه. وقد اختلفت هذه الأسباب – عند العلماء – وتفاوتت بين قلة وكثرة ، وعموم وخصوص ،والحقيقة أن سبب هذا الاختلاف وهذا التفاوت يرجع في حقيقته إلى الاختلاف في المعنى المراد من الآية ، حسب ما يقتضيه سياق كل آية ، ومنا سبتها لما قبلها . وممن تحدث عن أسباب التقديم والتأخير الإمام الزركشي في كتابه البرهان في علوم القرآن ، وقد أطال النفس في ذلك حيث عقد فصلا تحدث فيه عن أسباب التقديم والتأخير ، وذكر منها سبعة أسباب ، وهي على سبيل الإجمال:

الأول : أن يكون أصله التقديم ولا مقتضى للعدول عنه ، كتقديم الفاعل على المفعول ، والمبتدأ على الخبر ، وصاحب الحال عليها. **الثاني** : أن يكون في التأخير إخلال ببيان المعنى. كقوله تعالى : **((وقال رجل مؤمن من آل فرعون** يكتم إيمانه) (٥)، فإنه لو أخر قوله : (من آل فرعون) فلا يفهم أنه منهم . وكقوله تعالى : **(وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الاخرة وأترفناهم في** الحياة الدنيا) (٦)، بتقديم المجرور (من قوله) على الوصف (الذين كفروا) ولو تأخر لتوهم أنه من صفة الدنيا ، لأنها هنا اسم تفضيل من الدنو ، وليست اسما ، والدنو يتعدى بـ (من) ،وحينئذ يشتبه الأمر في القائلين أهم من قومه أم لا ، فتقدم لاشتمال التأخير على الإخلال ببيان المعنى المقصود ، وهو كون القائلين من قومه ، وحين أمن هذا الإخلال بالتأخير ، قال تعالى في موضع آخر من هذه السورة:

---

(١) دلائل الإعجاز صـ٧٢ مطبعة القاهرة ١٣٨١هـ

(٢) الجامع لأحكام القرآن له ٣٤/١ طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٤ هـ

(٣) البرهان في علوم القرآن ٣ / ٢٧٣ طبعة دار الفكر بيروت ١٤٢١هـ

(٤) علوم البلاغة صـــ١٠٠ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢هـ

(٥) سورة غافر ، آية ٢٨. (٦) سورة المؤمنون ، آية ٣٣.

: (قال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم) (١)، بتأخير المجرور عن صفة المرفوع .

الثالث : أن يكون في التأخير إخلال بالتناسب ، فيقدم لمشاكلة الكلام ولرعاية الفصيلة . وذلك كقوله تعالى : (واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) (٢) ، بتقديم إياه على تعبدون لمشاكلة رءوس الآي . وكقوله تعالى : (فأوجس في نفسه خيفة موسى) (٣) ، فإنه لو أخر (في نفسه) عن (موسى) فات تناسب الفواصل . وكقوله تعالى : (تغشى وجوههم النار) (٣) فإن تأخير الفاعل عن المفعول لمناسبة لما بعده . قلت : وقد جانب الزركشي الصواب في ذلك ، لأن رعاية الفاصلة ليست سبيل كافيا حتى تستقل بتقديم أو تأخير ، وإنما ينبغي أن يكون معها سبب آخر يتصل بالمعنى ، فكان الأولى بالزركشي أن يذكر – مع ما ذكره – سببا آخر ، وهو الاختصاص كما سيأتي . يقول الدكتور فضل حسن عباس : (ولا تلتفت إلى ما يقال من أن هذا التقديم لرعاية الفاصلة ، فمع تقديرنا لجمال الإيقاع ، وحلاوة الجرس ، لكنه في كتاب الله تعالى لن يستقل بتقديم أو تأخير ، أو حذف أو ذكر ، وإنما – إن كان ذلك – فلا بد أن يكون تابعا لمعنى أراده القرآن الكريم) (٤)

الرابع : لعظمة الاهتمام به . وذلك أن من عادة العرب الفصحاء إذا أخبرت عن مخبر ما ، وأنا طت به حكما ، وقد يشركه غيره في ذلك الحكم ، أو فيما أخبر به عنه ، وقد عطفت أحدهما على الأخر بالواو المقتضية عدم الترتيب ، فإنهم مع ذلك يبدأون بالأهم والأولى . قال سيبويه :كأنهم يقدمون الذي شأنه أهم لهم ، وهم ببيانه أغنى ، وإن كانا جميعا يهمانهم ويعنيانهم (٥)، قلت : وهذان سببا ن مختلفان يستقل أحدهما عن الأخر ولكن قد يجتمعان في بعض الآيات ، والدليل على أنهما مختلفان : أن الزركشي نفسه قد ذكرهما كسببين منفصلين عن بعضهما ، وذلك عند حديثه عن النوع الأول من أنوع التقديم ، وهو (ما قُدم والمعنى عليه) ، فذكر السادس : التعظيم ، والثالث عشر: الاهتمام عند المخاطب، كما سيأتي . ومما أجتمع فيه التعظيم ، فقدم لذلك ، قوله تعالى : (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) (٦)، فبدأ بالصلاة لأنها أهم ، وقوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول)(٧) ، وقوله : (إياك نعبدو وإياك نستعين) (٨) ، فقدم العبادة للاهتمام بها .

الخامس : أن يكون الخاطر ملتفتا إليه ، والهمة معقودة به : وذلك كقوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء) (٩)، بتقديم الجار والمجرور على المفعول الأول ، لأن الإنكار متوجه إلى الجعل لله ، لا إلى مطلق الجعل .

السادس : أن يكون التقديم لإرادة التبكيت والتعجب من حالة المذكور، كتقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء) ، والأصل : الجن شركاء، وقدم لأن المقصود التوبيخ ، وتقديم الشركاء أبلغ في حصوله .

السابع : الاختصاص ، وذلك بتقديم المفعول ، والخبر ، والظرف ، والجار والمجرور ونحوها إلى بعض. وإذا نظرنا إلى الأمثلة على الفعل ، كقوله تعالى : (إياك نعبد) أي نخصك بالعبادة ، فلا نعبد غيرك ، وقوله تعالى :

---

(١) سورة المؤمنون الآية ٢٤ . (٢) سورة فصلت الآية ٣٧ .

(٣) سورة إبراهيم :الآية ٥٠ . (٤) انظر : كتاب البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعانى صـ٢٤٣. طبعة دار الفرقان ، عمان ١٤٢١هـ .

(٥) البرهان في علوم القرآن للزركشى ٢٧٥/٣طبعة دار الفكر ، بيروت ١٤٢١هـ .

(٦) سورة البقرة الآية ٤٣ . (٧) سورة التغابن الآية ١٢ .

(٨) سورة الفاتحة الآية ٥ . (٩) سورة الأنعام الآية ١٠٠.

(إن كنتم إياه تعبدون) (١) ، أى كنتم تختصونه بالعبادة (٢) . ومن الملاحظ على هذه الأسباب أنها أسباب عامة تندرج تحت أنواع مختلفة ، وأن السياق هو الذي يحدد سبب التقديم والتأخير ، فإما أن يكون سبب التقديم والتأخير لعدم الإخلال بالمعنى ، أو للتعظيم ،أو لأن المهمة معقودة به أو للتبكيت والتوبيخ ، أو للاختصاص، وهكذا حيسما يقتضيه السياق ومناسبة الكلام .

ومما تجدر الإشارة إليه ، أن الزركشي لم يكتف بذكر هذه الأسباب ، وإنما ذكر أسباب كثيرة غيرها ، عند حديثه عن أنواع التقدم والتأخير ، حيث ذكر خمسة وعشرون سبباً للنوع الأول ، وهو (ما قدم والمعنى عليه) وسوف يأتي الحديث عنها قريباً .أما السيوطي ، فقد ذكر لذلك عشرة أسباب ، وهي ضمن الأسباب التي ذكرها الزركشي مع ضم بعض الأسباب التي ذكروها لهذه الأسباب ، نجد أن أكثرها من المعطوف بالواو ، ونحن نعلم أن الواو لا تقتضي الترتيب ، كما قال سيبويه : (إلا أنهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم ، وبيانه أعنى وأن كانا جميعاً يهمانهم ويعنيانهم) (٣) مما جعل العلماء يلتمسون هذه الأهمية فوضعوا الأسباب المقتضية للتقديم والتأخير ، بناء على تلك الأهمية التي استوحوها من السياق ومناسبة الكلام .

يقول ابن كيكلدي العلائي بعد ذكر كلام سيبويه السابق : (وهذا يستدعي بيان الأسباب المقتضية للتقديم والاهتمام ، ليترتب عليها مناسبة المواضع المعطوفة في مواضع من الكتاب والسنة ، قدم بعضها على بعض لحكمة تقتضى التقديم في ذلك المقام من حيث المعنى) (٤) وفيما يلي تفصيل لهذه الأسباب كما جاءت عند الزركشي والسيوطي مع التعليق والمناقشة ، ولكني سأعتمد ترتيب الزركشي لكونه الأسبق والأكثر توسعاً في هذا الباب ، وإن كنت اقتصر على بعض الأمثلة التي ذكرها ، وربما أذكر بعض الأمثلة التي ذكرها السيوطي وتعليقه عليها ، وربما أزيد عليهما ، فأقول وبالله التوفيق :**السبب الأول** : السبق ، وهو أقسام : منها: السبق بالزمان والإيجاد : كتقديم نوح على إبراهيم ، وإبراهيم على موسى ، وموسى على عيسى في قوله تعالى : (وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم) (٥)، وتقديم الملائكة على البشر ،كما في قوله تعالى: (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس) (٦) ،وتقديم السِّنة على النوم في قوله تعالى : (لا تأخذه سنة ولا نوم) (٧)، وتقديم الليل على النهار في قوله تعالى : (وجعلنا الليل والنهار آيتين)(٨) ،وتقديم الأزواج على الذرية في قوله تعالى : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين)(٩)، وتقديم الموت على الحياة في قوله تعالى : (الذي خلق الموت والحياة) (١٠)،إلى غير ذلك من الآيات .ومنها: سبق الإنزال كقوله تعالى : (وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان) (١١) ومنها: تقديم المكان على الزمان في قوله:(خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور)(١٢)، أى الليل والنهار ،وقوله : (وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون. وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) (١٣) .

---

(١) سورة النحل الآية ١١٤. (٢) البرهان في علوم القرآن ٣/٢٧٥-٢٧٧.

(٣) الكتاب له ١٥/١ طبعة المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣١٦ هـ

(٤) الفصول المفيدة في الواو المزيدة ١١١/١ طبعة دار البشير عمان ١٩٩٠ م .

(٥) سورة الأحزاب الآية ٧ . (٦) سورة الحج الآية ٧٥. (٧) سورة البقرة الآية ٢٥٥ .

(٨) سورة الإسراء الآية ١٢.(٩) سورة الفرقان الآية ٧٤ . (١٠) سورة الملك الآية ٢.

(١١) سورة آل عمران الآية ٣،٤ . (١٢) سورة الأنعام الآية ١. (١٣) سورة الأنبياء الآية ٣٢،٣٣.

وأقول : لا يلزم من تقديم المكان على الزمان تقدمه عليه في الوجود ، بل لا يعقل أن يكون الله تعالى قد أوجد مكاناً دون زمن ،فإما أن يكون أوجد المكان في الليل أو النهار ،ولا ريب أنهما متقدمان عليه . والله أعلم . ومنها: سبق الوجوب والتكليف كقوله تعالى : (اركعوا و اسجدوا) (١) ، وقوله (فاغسلوا وجوهكم وأيديكم) (٢)، وقوله : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) (٣) . وأقول : وقد يقدم النهار على الليل ، والحياة على الموت ، والسجود على الركوع ، لمناسبة السياق.

الثاني : بالذات ، كالأعداد وما شابهها : والحقيقة أن هذا السبب يجب أن يكون ضمن الأول وهو بالسبق ، لأن الواحد أسبق من الاثنين بالذات ، والاثنين أسبق من الثلاثة ، والثلاثة أسبق من الأربعة ، وهكذا ، وهذا ما فعله السيوطي ،فكان محقاً في ذلك ، ومنه قوله تعالى : (مثنى وثلاث ورباع) (٤) ، وقوله تعالى : (ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم) (٥) ، وقوله تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم) (٦). وأما قوله تعالى : (إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة) (٧)، فوجه تقديم المثنى هنا للحث على القيام بالنصيحة لله تعالى وطاعته ، ولا شك أن الأهم حالة الاجتماع فبدأ بها.

الثالث : بالعلة والسببية : كتقديم العزيز على الحكيم ، لأنه عز فحكم ، وتقديم العليم على الحكيم ، لأن الإحكام والإتقان ناشئ عن العلم ، وأما تقديم الحكيم عليه في قوله تعالى : (إنه حكيم عليم) (٨) ، فلأنه مقام تشريع الأحكام . ومنه قوله : (إياك نعبد وإياك نستعين) (٩) ، قدمت العبادة لأنها سبب حصول الإعانة ، وقوله تعالى (إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين) (١٠) ، لأن التوبة سبب الطهارة ، وقوله (ويل لكل أفاك أثيم) (١١) ، لأن الإفك سبب الإثم ، وقوله (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً) (١٢) ، قدم إحياء الأرض لأنه سبب إحياء الأنعام والأناسي ،و قدم إحياء الأنعام لأنه مما يحيا به الناس بأكل لحومها وشرب ألبانها

الرابع : بالمرتبة: وأقول : والأولى إدخال هذا السبب في السبب السادس عشر وهو التنقل ، لأن التنقل يكون بالمرتبة ، سواء من الأدنى إلى الأعلى ، أم العكس ، وسيأتي بيان ذلك في موضعه ، ولعل السيوطي لم يذكره لذلك .

الخامس : بالداعية: كتقدم الأمر بغض الأبصار على حفظ الفروج في قوله تعالى ، (قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم) (١٣)، لأن البصر داعية إلى الفرج ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (العينان تزنيان ،والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) (١٤)، أقول : والأولى إدخال هذا السبب في السبب الثالث ، وهو بالعلة والسببية ، لأن النظر سبب في الزنى ، وهذا ما فعله السيوطي .

---

(١) سورة الحج الآية ٧٧ . (٢) سورة المائدة الآية ٦.

(٣) سورة البقرة الآية ١٥٨. (٤) سورة النساء الآية ٣ .

(٥) سورة المجادلة الآية ٧ . (٦) سورة الكهف الآية ٢٢ .

(٧) سورة سبأ الآية ٤٦ . (٨) سورة الأنعام الآية ١٣٩ .

(٩) سورة الفاتحة الآية ٥ . (١٠) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

(١١) سورة الجاثية الآية ٧ . (١٢) سورة الفرقان الآية ٤٨ ، ٤٩.

(١٣) سورة النور الآية ٣٠ .

(١٤)أخرجه الإمام أحمد بن حنبل في المسند ٢/٣٧٢،حديث رقم ٨٨٣ ، طبعة مؤسسة قرطبة مصر .

السادس : التعظيم : كقوله تعالى : (ومن يطع الله والرسول) (١) ، وقوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم) (٢)، وقوله : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) (٣) ، وقوله : (واعلموا أنما غنمتم من شئ فأن لله خمسه وللرسول) (٤)، وقوله : (والله ورسوله أحق أن يرضوه) (٥)، وقوله : (إن الله وملائكته يصلون على النبي) (٦). أقول : ينبغي أن يضم هذا السبب إلى السبب الأول عند السيوطي ، وهو التبرك ، لأن الآيات التي استدل بها الزركشي والسيوطي ، جميعها تقدم فيها اسم الله تعالى، وهذا يفيد التبرك والتعظيم.

السابع : الشرف ، وهو أنواع : منها : شرف الرسالة ، كقوله تعالى : (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي) (٧)، ومنها : شرف الذكورة ، كقوله تعالى : (إن المسلمين والمسلمات) (٨)،

وقوله : (ألكم الذكر وله الأنثى)(٩) ، وقوله : (رجالاً كثيراً ونساءً)(١٠)، أقول : وفي ذلك نظر ،فتقديم الذكور على الإناث ليس للتشريف، وإنما لمقتضى السياق ، ولهذا قدم الإناث في قوله تعالى : (يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور) (١١)،لأن المقصود بيان أن الخلق كله بمشيئة الله – وهو قوله في الآية نفسها (يخلق ما يشاء)(١٢) – لا على سبيل وفق غرض العباد،أو قدم الإناث حثاً على الإحسان إليهن . ومنها : شرف الحرية ، كقوله تعالى : (الحر بالحر والعبد بالعبد) (١٣)، أقول : وفي هذا نظر لأن العبد قد يكون أشرف من الحر ، كما قال تعالى : (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) (١٤).ومنها : شرف العقل ، كقوله تعالى : (يسبح له من في السموات والأرض والطير صافات) (١٥)، وقوله : (متاعاً لكم ولأنعامكم)(١٦)، وأما تقديم الأنعام عليهم في قوله : (تأكل منه أنعامهم وأنفسهم) (١٧)، فمن باب تقديم السبب ، لأن تقدم ذكر الزرع ،بخلاف قوله متاعاً لكم ولأنعامكم فلأنها تقدم فيها ذكر الإنسان في قوله (فلينظر الإنسان إلى طعامه) (١٨).

ومنها : شرف الإيمان ، كقوله تعالى : (وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذي أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا)(١٩)، وكذلك تقديم المسلمين على الكافرين في كل موضع ، والطائع على العاصي ، وأصحاب اليمين على أصحاب الشمال . ومنها: شرف العلم ،كقوله تعالى : ((قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)) (٢٠). ومنها : شرف الحياة ، كقوله تعالى : (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) (٢١).

ومنها : شرف المعلوم ، كقوله تعالى : (عالم الغيب والشهادة) (٢٢)، فإن علم الغيبيات أشرف من المشاهدات. ومنها : شرف الإدراك ، كتقديم السمع على البصر في قوله تعالى : (إن السمع والبصر) (٢٣)، لأن السمع أشرف على الأرجح القولين عند جماعة من العلماء .

---

(١) سورة النساء الآية ٦٩ .
(٢) سورة آل عمران الآية ١٨ .
(٣) سورة المائدة الآية ٥٥ .
(٤) سورة الأنفال الآية ٤١ .
(٥) سورة التوبة الآية ٦٢ .
(٦) سورة الأحزاب الآية ٥٦ .
(٧) سورة الحج الآية ٥٢ .
(٨) سورة الأحزاب الآية ٣٥ .
(٩) سورة النجم الآية ٢١ .
(١٠) أول سورة النساء
(١١) سورة الشورى الآية ٤٩ .
(١٢) سورة البقرة الآية ١٧٨ .
(١٣) سورة البقرة الآية ٢٢١.
(١٤) سورة النور الآية ٤١.
(١٥) سورة الناز عات الآية ٣٣.
(١٦) سورة السجدة الآية ٢٧ . (١٧) سورة عبس الآية ٣٢ .
(١٨) سورة عبس الآية ٢٤ . (١٩) سورة الأعراف الآية ٨٧ . (٢٠) سورة الزمر الآية ٩
(٢١) سورة الروم الآية ١٩ (٢٢) سورة المؤمنون الآية ٩٢ (٢٣) سورة الإسراء الآية ٣٦ .

ومنها: الشرف بالفضيلة ، كقوله تعالى : (أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبين والصديقين والشهداء والصالحين)(١)، وقوله : (ومنك ومن نوح) (٢)، وقوله : (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) (٣)، ومنه تقديم المهاجرين في قوله تعالى : (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) (٤)،وقوله تعالى: (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) (٥)، وتقديم اليمين على الشمال في قوله تعالى : (جنتان عن يمين وشمال) (٦)، وتقديم الأنفس على الأموال في قوله تعالى : (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) (٧) .وأما تقديم الأموال في سورة الأنفال في قوله : (وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) (٨)، فوجه التقديم أن الجهاد يستدعي تقديم إنفاق الأموال ، فهو من باب السبق بالسببية ، ومنه قوله : (محلقين رؤوسكم ومقصرين) (٩)، ومنه تقديم السموات على الأرض ،ومنه تقديم الإنس على الجن ، ومنه تقديم السجود على الركوع في قوله : (واسجدي واركعي مع الراكعين) (١٠)، ومنه تقديم الخيل على البغال ، والبغال على الحمير في قوله تعالى : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) (١١)، وتقديم الذهب على الفضة ، وتقديم الشمس على القمر

الثامن: الغلبة والكثيرة ، للتخويف والتحذير منه والتنفير عنه :

كقوله تعالى : (فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) (١٢)، قدم الظالم لكثرته ، ثم المقتصد ، ثم السابق ، وقوله : (فمنهم شقي وسعيد) (١٣)،وقوله : (منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة) (١٤)،وقوله : (الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات) (١٥)، وقوله : (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) (١٦)، وقوله : (والسارق والسارقة) (١٧)، لأن السرقة في الذكور أكثر ، وقوله : (الزانية والزاني) (١٨).

قال الزمخشري: فإن قلت : كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً ، ثم قدم عليها ثانية – أي قوله تعالى : (الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها إلا زان أو مشرك)(١٩)، قلت : سيقت تلك الآية لعقوبتها على ماجنيا ، والمرأة هي المادة التي نشأت منها الجناية ، لأنها لو لم تُطمع الرجل ولم تومض له وتمكنه لم يطمع ولم يتمكن ، فلما كانت أصيلاً وأولاً في ذلك بدأ بذكرها ، وأما الثانية فمسوقة لذكر النكاح ، والرجل أصل فيه ، لأنه هو الراغب ، والخاطب ، ومنه يبدأ الطلب.

التاسع : سبق ما يقتضي تقديمه ، وهو دلالة السياق:

وهو ما يقابل السبب الرابع عند السيوطي ، وهو المناسبة.وأقول : وهذا السبب الذي يظهر سر الإعجاز القرآني ، فإن معظم الأسباب التي ذكرها العلماء ، إنما ترجع إلى هذا السبب ، وهو السياق ومناسبة الكلام ، لأنه مجال فسيح لإعمال الفكر ، في استنباط الأسرار من التقديم والتأخير ، بما يتناسب مع كل سياق ودلالته ، فما قدم في آية ، قد يؤخر في آية أخرى ، لدلالة السياق عليه.

---

(١) سورة النساء الآية ٢٣ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ٧ .
(٣) سورة الفتح الآية ٦٩ .
(٤) سورة التوبة الآية ١١٧.
(٥) سورة التوبة الآية ١٠٠.
(٦) سورة سبأ الآية ١٥ .
(٧) سورة التوبة الآية ١١١
(٨) سورة الأنفال الآية ٧٢ .
(٩) سورة الفتح الآية ٢٧ .
(١٠) سورة آل عمران الآية ٤٣ .
(١١) سورة النحل الآية ٨ .
(١٢) سورة فاطر الآية ٣٢ .
(١٣) سورة هود الآية ١٠٥.
(١٤) سورة آل عمران الآية ١٥٢.
(١٥) سورة النور الآية ٢٦ .
(١٦) سورة التغابن الآية ٢ .
(١٧) سورة المائدة الآية ٣٨ .
(١٨) سورة النور الآية ٢ .
(١٩) سورة النور الآية ٣ .

ومنه قوله تعالى : (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) (١)، فلما كان إسراحها وهى

خماص ، وإراحتها وهى بطان ، قدم الإراحة لأن الجمال بها حينئذ أفخر ،ومنه تقديم مريم فى قوله : (وجعلناها وابنها آية للعالمين) (٢)، لأن السياق فى ذكر مريم فى قوله : (والتي أحصنت فرجها)

(٣).ولذلك قدم الابن فى غير هذا المكان قال تعالى : (وجعلنا ابن مريم وأمه آية) (٤)، لأن السياق فى ذكره ، ومنه قوله تعالى : (ففهمناها سليمان وكلا آتينا حكماً وعلماً) (٥)، فإنه قدم الحكم ، مع أن العلم لابد من سبقه للحكم ، ولكن لما كان السياق فى الحكم قدمه ، قال تعالى : (وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم وكنا لحكمهم شاهدين) (٦)، وأما تقديم الحكيم على العليم فى سورة الأنعام ، فلأنه مقام تشريع الأحكام ، ومنه تقديم المحو على الإثبات فى قوله : (يمحو الله ما يشاء ويثبت) (٧) ، فإن قبله قوله : (لكل أجل كتاب) (٨) ، ومنه قوله تعالى : (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً) (٩)، قدم(رسلاً) هنا على (من قبلك) وفى غير هذه بالعكس ، لأن السياق هنا فى الرسل ، ومنه قوله تعالى : (والله يقبض ويبسط) (١٠) ، قدم القبض لأن قبله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة) (١١)، وكان هذا بسطاً ، فلا يناسب تلاوة البسط ، فقدم القبض لهذا ، وللترغيب فى الإنفاق ، لأن الممتنع منه سببه خوف القلة فبين أن هذا لا ينجيه فإن القبض مقدر ولابد.

أقول : ومنه قوله تعالى : (وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى ا?لأرض ولا فى السماء)(١٢)، فقدم ا?لأرض لأن الخطاب لأهل الأرض ، وهو قوله : (ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه) (١٣)، ومنه تقديم الإنس فى قوله تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) (١٤)، لأنهم هم المقصودون بالتحدي ، وتقديم الجن فى قوله : (يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان)(١٥)،لأنهم أقوى أجساماً ، وأعظم أقداما .

العاشر: مراعاة إشتقاق اللفظ : كقوله تعالى (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) [المدثر:٣٧] . وقوله (علمت نفس ما قدمت وأخرت)[الإنفطار :٥] وقوله (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم)[الواقعة :٣٩-٤٠]

---

(١) سورة النحل الآية ٦ .
(٢،٣) سورة الأنبياء الآية ٩١.
(٤) سورة المؤمنون الآية ٥٠ .
(٥) سورة الأنبياء الآية ٧٩.
(٦) سورة الأنبياء الآية ٧٨.
(٧) سورة الرعد الآية ٣٩ .
(٨) سورة الرعد الآية ٣٨ .
(٩) سورة الرعد الآية ٣٨ .
(١٠،١١) سورة البقرة الآية ٢٤٥.
(١٢،١٣) سورة يونس ا?لآية ٦١.
(١٤) سورة الإسراء الآية ٨ .
(١٥) سورة الرحمن الآية ٣٣.

وقوله (إنه هو يبدىء ويعيد)[البروج : ١٣] وقوله (لله الأمر من قبل ومن بعد)[الروم :٤] . وقوله(فى الدنيا والآخرة) [البقرة : ٢٢٠] أقول : والأولى أن يدخل هذا السبب فى السبب الأول وهو السبق بالذات ؛ لأن الدنيا قبل الآخرة ، والبدء قبل الإعادة ، والتقدم قبل التأخر ، وقد أدخل السيوطى هذا فى السبب الذى قبله ، وهو المناسبة ، فقال : "المناسبة وهى إما مناسبة المتقدم لسياق الكلام ، و إما مناسبة لفظ هو من التقدم أو التأخر".

الحادى عشر : للحث عليه خيفة من التهاون به :كتقديم تنفيذ الوصية على وفاء الدين فى قوله تعالى (من بعد وصية يوصى بها أو دين)[النساء : ١١] فإن وفاء الدين سابق على الوصية ، لكن قدم الوصية لأنهم كانوا يتساهلون بتأخيرها ، بخلاف الدين . ونظيره (يهب لمن يشاء إناثاً) [الشورى : ٤٩] قدم الإناث حثاً على الإحسان إليهن.

الثانى عشر : لتحقق ما بعده وإستغنائه هو عنه فى تصوره :كقوله تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات)[مريم : ٩٦] وقوله (ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً) [فصلت : ٣٣] وقوله (واذين عملو السيئات ثم تابوا) [الأعراف: ١٥٣] أقول : أرى أن يدخل هذا فى السبب الثالث ، وهو العلة والسببية ، لأن الإيمان سبب فى العمل الصالح، وعمل السيئات سبب للتوبة.

الثالث عشر :الاهتمام عند المخاطب : كقوله تعالى : (فحيوا بأحسن منها أو ردوها)(١) ، وقوله تعالى : (والذي الربي واليتامى والمساكين)(٢)، لفضل الصدقة على القريب ، وقوله تعالى : (ومن قتل مؤمناً خطأً فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله) (٣)، فقدم الكفارة على الدية ، وعكس فى قتل المعاهد حيث قال : (وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة) (٤)،قال الماوردى فى الحاوي : (ووجهه أن المسلم يرى تقديم حق الله على نفسه ، والكافر يرى تقديم نفسه على حق الله ، قال : وقال ابن أبى هريرة : إنما خالف بينهما ولم يجعلهما على نسق واحد ، لئلا يلحق بهما ما بينهما من قتل المؤمن فى دار الحرب فى قوله : (فإن كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة)(٥)، فضم إليه الدية إلحاقاً بأحد الطرفين فأزال هذا الاحتمال باختلاف اللفظين ، وقال الفقيه نجم الدين بن الرفعة : يحتمل أن يقال إنه لما كان الكفر يهدر الدماء ، وهو موجود ، كان الغاية يبذل الدم عند العصمة لأجل الميثاق أتم ، لأنه يغمض حكمته ، فلذلك قدمت الدية فيه وأخرت الكفارة، لأن حكمهما قد سبق ، ولما كانت عصمة المسلم ثابتة، وقياس الأصول أنه لا تجب الكفارة فى القتل الخطأ، لأنه لا إثم فيه ، خصوصاً على المسلمين لرفع القلم عن الخطأ ، كانت العناية بذكر الكفارة فيه أتم ، لأنها التى تغمض فقدمت).ومن هذا النوع قوله تعالى

---

(١) سورة النساء الآية ٨٦.
(٢) سورة الأنفال ٤١.
(٣)(٤)(٥) سورة النساء الآية ٩٢.

: (فأتبع سبباً حتى إذا بلغ مغرب الشمس)(١)، قيل لما بدأ بالغرب قبل المشرق ، وكان مسكن ذي القرنين من ناحية المشرق ؟ قيل لقصد الاهتمام ، إما لتمرد أهله وكثرة طغيانهم في ذلك الوقت، أو غير ذلك مما لا ينته إلينا علمه. ومنه تقديم نفي الولد على نفي الوالد في قوله : (لم يلد ولم يولد)(٢)، فإنه لما وقع في الأول منازعة الكفرة وتقولهم اقتضت الرتبة بالطبع تقديمه في الذكر اعتناء به قبل التنزيه عن الوالد الذي لم ينازع فيه أحد من الأمم .

الرابع عشر : للتنبيه على أنه مطلق لا مقيد: كقوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن) (٣)، على القول بأن لله في موضع المفعول الثاني لـ (جعل) ، وشركاء مفعول أول ، ويكون الجن في كلام ثان مقدر : كأنه قيل : فمن جعلوا شركاء ؟ قيل : الجن ، وهذا يقتضي وقوع الإنكار على جعلهم لله شركاء على الإطلاق ، فيدخل شركة غير الجن ، ولو أخر فقيل : وجعلوا الجن شركاء لله ، كان الجن مفعولاً أولاً ، وشركاء ثانياً ، فتكون الشركة مقيدة غير مطلقة ، لأنه جرى على الجن ، فيكون الإنكار توجه لجعل المشاركة للجن خاصة ، وليس كذلك .

الخامس عشر : للتنبيه على أن السبب مرتب : كقوله تعالى : (يوم يحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم)(٤)، قدم الجباه ثم الجنوب ، لأن مانع الصدقة في الدنيا كان يصرف وجهه أولاً عن السائل ، ثم ينوء بجانبه ، ثم يتولى بظهره .

السادس عشر التنقل ، وهو أنواع : منها التنقل من الأدنى إلى الأبعد أو الأعلى لقصد الترقي ،كقوله تعالى : (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون . الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً)(٥) ، قدم ذكر المخاطبين على من قبلهم وقدم الأرض على السماء وكذلك قوله :(إن الله لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء)(٦)،وقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم)(٧)،وقوله : (ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة)(٨)، وقوله : (ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصها)(٩)، وقوله : (لا تأخذه سنة ولا نوم)(١٠)، وقوله : (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون))(١١). وقد وقع عند السيوطي أنّ الآيات الثالثة الأخيرة ، هي منا الأعلى إلى الأدنى لقصد التدلي ، وهذا خطأ ، فهي من الأدنى إلى الأعلى لقصد الترقي وقوله تعالى : (ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها)(١٢)، فإنه سبحانه بدأ بالأدنى لغرض الترقي ، سورة أن اليد أشرف من الرجل ، والعين أشرف من اليد ، والسمع أشرف من البصر .

ومنها : التنقل من الأعلى إلى الأدنى لقصد التدلي ، كقوله تعالى : ((إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين ، وفي خلقكم وما يبث من دابة)(١٣)، وقوله : (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) (١٤)، وقوله : (ما كنت تعلمها أنت ولا قومك) (١٥). وأقول : وقد يكون من الأعلى إلى الأدنى لقصد الشرف ، وقد سبق السبب السابع

---

(١) سورة الكهف الآية ٨٥،٨٦. (٢) سورة الإخلاص الآية ٣.(٣) سورة الأنعام الآية ١٠٠ .
(٤) سورة التوبة الآية ٣٥ .(٥) سورة البقرة الآية ٢١ ، ٢٢ . (٦) سورة آل عمران الآية ٥ .
(٧) سورة المؤمنون الآية ٣٦ . (٨) سورة التوبة الآية ١٢١ .(٩) سورة الكهف الآية ٤٩ .
(١٠) سورة البقرة الآية ٢٥٥. (١١) سورة النساء الآية ١٧٢ (١٢) سورة الأعراف الآية ١٩٥.
(١٣) سورة الجاثية الآية ٣،٤. (١٤) سورة آل عمران الآية ١٨ . (١٥) سورة هود الآية ٤٩ .

السابع عشر : الترقي أقول : وقد تقدم في السبب الذي قبله ، وهو التنقل

الثامن عشر : مراعاة الأفراد : فإن المفرد سابق على الجمع ، كقوله تعالى : (المال والبنون) (١)، وقوله : (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين) (٢)، ومنهم تقديم الوصف بالمفرد على الوصف بالجملة في قوله : (وقال رجل منهم من آل فرعون يكتم إيمانه)(٣)، وقوله : (هذا ذكر مبارك أنزلناه) (٤). أقول : والأولى أن يدخل هذا السبب في السبب الأول ، وهو السبق ، لأن المفرد سابق على الجمع .

التاسع عشر : التحذير منه والتنفير عنه

العشرون : التخويف منه

أقول : وهذان السببان يدخلان في السبب الثامن كما تقدم

الحادي والعشرون : التعجيب من شأنه : كقوله تعالى : (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير)(٥)، قال الزمخشري :لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت : لأن تسخيرها وتسبحها أعجب وأدل على القدرة ، وأدخل في الأعجاز ، لأنها جماد ، والطير حيوان إلا أنها غير ناطق:

الثاني والعشرون : كونه أدل على القدرة : كقوله تعالى : (فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع)(٦).قال الزمخشري : فإن قلت : لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ قلت : قدم ما هو أعرق في الكتب ، وهو الماشي بغير آله مشي من أرجل أو قوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع). أقول : الأولى أن نضم هذا السبب إلى السبب الذي قبله ، وهذا ما فعله السيوطي ، وهو ما يفهم من كلام الزمخشري أيضاً

الثالث والعشرون : قصد الترتيب :كقوله تعالى : (أركعوا واسجدوا) (٧)، وقوله : (فأغسلو وجوهكم وأيديكم) (٨)، وقوله : (إن الصفا والمروة من شعائر الله) (٩)، ومثله الكفارة المرتبة في الظهار والقتل . أقول : الواو لا تفيد الترتيب بخلاف إلغاء ، وإنما هو من باب سبق الوجوب والتكليف ، وقد تقدم في السبب الأول وهو السبق .

الرابع والعشرون : خفة اللفظ : وقد يكون تقديم الإنس على الجن من ذلك ، فالإنس أخف ، لمكان النون والسين المهموسة .

أقول : وهذا بعيد ، بل باطل ، لأنه ورد في القرآن الكريم تقديم الجن على الإنس ، وليس فيه ثقل في اللفظ ، فثبت بطلان هذا السبب ، وحتى ولو ثبت هذا في غيره فإنه لايعد سبباً مقبولاً للتقديم أو التأخير .

الخامس والعشرون : رعاية الفواصل(١٠) : -

أقول : لقد تقرر من قبل – أن رعاية الفاصلة لا تستقل بتقديم أو تأخير ، أو حذف أو ذكر ن وإنما – إن كان ذلك – فلابد أن يكون تابعاً لمعنى أراده القرآن . والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الكهف الآية ٤٦ . (٢) سورة المؤمنون الآية ٥٥ (٣) سورة غافر الآية ٢٨ .
(٤) سورة الأنبياء الآية ٥٠ . (٥) سورة الأنبياء الآية ٧٩. (٦) سورة النور الآية ٤٥.
(٧) سورة الحج الآية ٧٧. (٨) سورة المائدة الآية ٦ . (٩) سورة البقرة الآية ١٥٨.
(١٠) انظر: البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢٧٩ - ٣١٨ ، والإتقان في علوم القرآن ٢/ ٣١٥- ٣١٨ .

ثالثاً : أنواع التقديم والتأخير وأغراضه

عقد الزركشي فصلاً لأنواع التقديم والتأخير ، وقسمه إلى ثلاثة أنواع هي

النوع الأول : ما قدم والمعنى عليه ، ثم ذكر له خمسة وعشرين سبباً وهي التي سبق الحديث عنها .

النوع الثاني : ما قدم والنية به التأخير

النوع الثالث : ما قدم في آية وأخر في أخرى .وقد ذكر لكل نوع منها أمثلة من القرآن الكريم (١). أما السيوطي فقد جعل التقديم والتأخير قسمين .

الأول : ما أشكل معناه بحسب الظاهر ، فلما عرف أنه من باب التقديم والتأخير اتضح .

الثاني : ما ليس كذلك ، وهو ما يقابل النوع الأول والثاني عند الزركشي (٢).

ولست مع الزركشي – ومن رأى رأيه من العلماء – في أن بعض الآيات كان التقديم فيها بينة التأخير ، إذا ما الفائدة حينئذ من التقديم ؟ ومنهم من يعبر عن ذلك بقوله : في الكلام تقديم وتأخير ، وهم بذلك يسوون بين التقديم والتأخير ، وليس كذلك فمثلاً عند تفسير قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى)(٣)، نجد أكثر المفسرين قد ذهبوا إلى أن قوله : (والصابئون) مقدم والنية به التأخير ، والتقدير : إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى حكمهم كذا ، والصابئون كذلك (٤). والذي دفعهم إلى هذا القول أن (الصابئون) جاءت مرفوعة ، إذ كان حقها النصب لأنها معطوفة على اسم (إن) ، والحقيقة أنها جاءت كذلك لفائدة ، وهي لفت الأنظار ، واللفتة هنا هي إثارة الحوافز والهمم للبحث عن هوية الصابئين في هذه السورة ، التي بينت بالتفصيل أمر اليهود والنصارى ، ولم تذكر شيئاً عن الصابئين . والبحث عن هذه القضية ، لابد من دراسة الآيات التي تحدثت عن اليهود والنصارى والصابئين ، حتى نقف على سر التقديم والتأخير فيها .

فأقول : هناك ثلاث آيات تحدثت عن ذلك ،الأولى في سورة البقرة وهي قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين) (٥)، والثانية في سورة المائدة وهي قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى)(٦)، والثالثة في سورة الحج وهي قوله تعالى : (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى) (٧). فنلاحظ في سورة البقرة قدم ذكر النصارى على الصابئين ، وأخر عن الصابئين في سورتي البقرة والحج ، والسر في ذلك ، أن سورة البقرة بدأت بذكر المؤمنين واليهود والنصارى وهم أصحاب كتب ، ثم ذكر الصابئين بعد ذلك لأنهم لا كتاب لهم ، وهذا ترتيب طبيعي في هذه السورة ، وليس الأمر كذلك في سورتي المائدة والحج ، إذ الترتيب فيهما ترتيب زمني ، لأن الصابئين متقدمون على النصارى ، لأنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام (٨). فالكلام يبقى كما هو ، دون الحاجة إلى القول بأن النية به التأخير ، فإن ذلك يذهب سر النظم ، فيكون قوله : (والصابئون) مبتدأ ، وخبره محذوف ، تقديره : كذلك مثال آخر : وهو قوله تعالى : (واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) (٩)، قالوا : فيه تقديم وتأخير أي فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة ، وهذا التقدير يذهب برونق الآية ، ودقة نظمها

---

(١)انظر : البرهان ، ٣/٢٧٩-٣٣٣. (٢) الإتقان ، ٢/٣١٤ -٣١٥.
(٣)سورة المائدة الآية ٦٩. (٤)انظر : تفسير الكشاف ١/٦٣١ للزمخشري، ومعالم التنزيل للبغوى ٢/٥٣، وزاد المسير لابن الجوزى ٢/ ٣٩٩ ، والتفسير الكبير للرازي ١٢/٥١ ، وإرشاد العقل السليم لأبى السعود ٣/٦٢ ، وأنوار التنزيل للبيضاوي ٢/٣٤٩ ، وروح المعاني للآلوسى ٦/٢٠١(٥) سورة البقرة الآية ٦٢ . (٦) سورة المائدة الآية ٦٩ .
(٧) سورة الحج الآية ١٧ . (٨)انظر درة التنزيل وغرة التأويل للخطيب الإسكافي ص ١٠ ، ١١ طبعة دار الكتب العلمية بيروت (٩) سورة الأنبياء الآية ٩٧ .

قال أحمد بدوى : فتقديم شاخصة على أبصار يصورها لك كأن كل صفة أخرى لها قد انمحت ، ولم يبق لها سوى الانفتاح الذى يؤذن بالخوف والذهول(١)، ومنه قوله تعالى : (وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله) (٢)، فلو قال وظنوا أن حصونهم مانعتهم لم يفد المعنى الذى فى الآية

قال البيضاوى : وتقديم الخبر ، وإسناد الجملة إلى ضميرهم ، للدلالة على فرط وثوقهم بحصانتها ، واعتقادهم فى أنفسهم أنهم فى عزة ومنعة بسببها ثم إن القول بأنه قدم والنية به التأخير يخل بمعنى الآية من ذلك قوله تعالى : (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) (٣)، قيل : المعنى أنه صفة لخطابهم لموسى ، أنهم جهروا به وأعلنوا ، فيكون في الكلام تقديم وتأخير ، والتقدير : وإذ قلتم جهرة يا موسى ، وهذا المعنى بعيد ، والصحيح أنه صفة لما سألوه من رؤية الله تعالى ، أنه يروه جهرة وعياناً ، فيكون الكلام على نسقه ، لا تقديم فيه ولا تأخير ، وأكد بالجهر فرقا بين رؤيا العيان ورؤية المنام(٤). وعند تفسير قوله تعالى : (فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) (٥).

لقدأنكر الطبرى على من قال إن هذه الآية من باب التقديم والتأخيررر فقال: يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وإذا كنت يا محمد قارئاً للقرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

وكان بعض أهل العربية يزعم أنه من المؤخر الذى معناه التقديم وكأن معنى الكلام عنده : وإذا استعنت بالله من الشيطان الرجيم فاقرأ القرآن ، ولا وجه لما قال من ذلك ، لأن ذلك لو كان كذلك لكان متى استعاذ مستعيذ من الشيطان الرجيم ، لزمه أن يقرأ القرآن ، ولكان معناه ما وصفناه ، وليس قوله (فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم) (٦) ، بالأمر اللزم ، وإنما هو إعلام وندب ، وذلك أنه لا خلاف بين الجميع ، أن من قرأ القرآن ولم يستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، قبل قراءته أو بعدها أنه لم يضيع فرضا ولا واجباً (٧).وكذلك قوله تعالى : (فجعله غثاء أحوى) (٨).

قال الطبرى : يقول أعلى ذكره فجعل ذلك المرعى غثاء ، وهو ما جف من النبات ويبس ، فطارت به الريح ، وإنما عنى به ها هنا أنه جعله هشيماً يابساً متغيراً إلى الحوة ، وهى السواد بعد البياض ، أو الخضرة من شدة اليبس ، وكان بعض أهل العلم بكلام العرب ، يرى أن ذلك من المؤخر الذى معناه التقديم ، وأن معنى الكلام : والذى أخرج المرعى أحوى ، أى أخضر إلى السواد ، فجعله غثاء بعد ذلك – وهذا القول – وإن كان غير مدفوع أن يكون ما اشتدت خضرته من النبات قد تسميه أسود – غير صواب عندى بخلافه تأويل أهل التأويل فى أن الحرف إنما يحتال لمعناه المخرج بالتقديم والتأخير ، فإذا لم يكن له وجه مفهوم إلا بتقديمه عن موضعه أو تأخيره ، فأما وله فى موضعه وجه صحيح ، فلا وجه لطلب الاحتيال لمعناه بالتقديم والتأخير (٩). ومن الآيات التى قيل إنها من باب التقديم والتأخير قوله تعالى : (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) (١٠).

---

(١)من بلاغة القرآن لأحمد بدوى ص ١١٢ مطبعة النهضة بمصر ١٣٧٠هـ
(٢) سورة الحشر الآية ٢ . (٣)أنوار التنزيل ٥/ ٣١٧ .
(٤) سورة البقرة الآية ٥٥ .
(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ١/ ٤٠٤ طبعة دار الفكر بيروت ١٤١٤هـ .
(٦) سورة النحل الآية ٩٨ .
(٧) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ١٤/ ١٧٣ طبعة دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢هـ
(٨) سورة الأعلى الآية ٥ .
(٩) جامع البيان عن تأويل آى القرآن ٣٠/١٥٣ ،وتفسير القرآن العظيم لابن كثير ٤/ ٥٠١ طبعة دار الفكر بيروت . (١٠) سورة العنكبوت الآية ٤١.

قال الواحدى : (لو كانوا يعلمون) موضعه عند قوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء) لو كانوا يعلمون (كمثل العنكبوت) فهو مؤخر معناه التقديم (١).

أقول : بل قوله تعالى : (لو كانوا يعلمون) جاء فى موضعه ، دون الحاجة إلى القول بأنه مؤخر معناه التقديم ، أى لو كانوا يعلمون هذا المثل لما اتخذوا من دون الله أولياء .

ومنه قوله تعالى حكاية عن منكرى البعث : (إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين) (٢).قال البغوى : (قيل فيه تقديم وتأخير ، أى نحيا ونموت ، لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت ، وقيل : يموت الآباء ويحيا الأبناء ، وقيل يموت قوم ويحيا قوم)) (٣).

فعلى التأويلين الأخيرين لا حاجة بنا إلى القول بأن فى الكلام تقديماً وتأخيرا ً.قول : وإنما قدم الموت لمناسبة الكلام ، لأنه قال قبله (أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون) (٤)، وفى ذلك تشنيع عليهم باستنطاقهم ما ينكرون.

وخلاصة القول : إن كل جملة ، بل إن كل لفظة فى القرآن الكريم إنما جاءت فى موضعها ، دون الحاجة إلى القول بأنها من المقدم الذى معناه التأخير ، أو أنها من المؤخر الذى معناه التقديم ، لأن ذلك يذهب سر إعجاز النظم القرآنى ، فهى إنما أخرت أو قدمت لأجل أسرار بلاغية ، اقتضاها السياق ومناسبة الكلام . هذا تقسيم الزركشى والسيوطى لأنواع التقديم والتأخير ، ولكنى ذهبت إلى تقسيم ثالث ، أرى أنه الأولى ، لأنه أوضح ، وأكثر انسجاماً مع أغراض التقديم والتأخير ، فرأيت أن أقسم التقديم والتأخير إلى ثلاثة أنواع هى : -

النوع الأول : تقديم المسند إليه وأغراضه

النوع الثانى : تقديم المسند وأغراضه ،

النوع الثالث : تقديم الاستفهام وأغراضه .

النوع الأول : تقديم المسند إليه وأغراضه

قبل الحديث عن تقديم المسند إليه ، لابد من توضيح المقصود بهما ، فأقول :

المسند إليه : هو موضوع الكلام الذى نسند إليه شيئاً .

المسند : هو ما يُحكم به على الموضوع ويسند إليه .

مواضع المسند إليه هى : الفاعل ، ونائب الفاعل ، والمبتدأ ، واسم كان وإن وأخواتها .مواضع المسند هى : الفعل التام ، واسم الفعل ، وخبر المبتدأ ، وخبر كان وإن وأخواتها .إذا عرفت هذا ، فاعلم أن المسند إليه يتقدم لأغراض ، منها :

الأول : التشويق ، ليتمكن الخبر فى ذهن السامع :

وذلك بأن يكون فى المسند إليه غرابة : من شأنها أن تشوق المخاطب إلى معرفة المسند الذى لاتتم الفائدة إلا به ، ومن ذلك قوله تعالى : (إن أكرمكم عند الله اتقاكم) (٥)،فالمخاطبون يستعجلون الخبر ، ويتشوقون إلى معرفة ،ولا سيما أنهم كانوا يحسبون أن الكرم هو البذل ، ولكنه هنا شئ آخر ، إنه التقوى ، فإذا سمع المخاطب هذا الخبر تمكن فى ذهنه (٦).

---

(١) الوجيز فى التفسير للواحدى ٣٣٨/٢ طبعة دار القلم دمشق ١٤١٥هـ

(٢) سورة المؤمنون الآية ٣٧.

(٣) معالم التنزيل ٣٠٨/٣ طبعة دار المعرفة بيروت ١٤٠٧ هـ.

(٤) سورة المؤمنون الآية ٣٥ . (٥) سورة الحجرات الآية ١٣.

(٦) انظر كتاب علوم البلاغة للمراغى ص ١٠١ ، وكتاب البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعانى للدكتور فضل عباس ص ٢١٨ ، ٢١٩ .

الثانى : تعجيل المسرة للتفاؤل : وذلك بأن يكون فى المسند إليه أمر يسر المخاطب ، فتعجل لديه المسرة بتقديمه ، ومنه قوله تعالى : (الله ولى الذين آمنوا (١)، فإذا سمع المخاطب لفظ الجلالة دخلت المسرة على قلبه قبل أن يعرف الخبر .ومنه كذلك قوله تعالى : (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم) (٢)، فإن تقديم المسند إليه (النبى) يعجل المسرة لدى المخاطب قبل معرفة الخبر .

الثالث : تعجيل المساءة للتشاؤم: وذلك بأن يكون فى المسند إليه أمر يسئ المخاطب ، يستاء إذا سمعه ، فتعجل لديه المساءة بتقديمه، ومن ذلك قوله تعالى(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء)(٣). ومنه قوله تعالى : (النار يُعرضون عليها غدواً وعشياً)(٤).

الرابع : إفادة التخصيص : وذلك أن يدخل النفى على المسند إليه ، وأن يكون المسند فعلاً ، أو شبيهاً بالفعل كاسم الفاعل ، أو اسم المفعول ، أو الصفة المشبهة (٥). ومنه قوله تعالى : (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفاً ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز) (٦)، فقوله : (وما أنت علينا بعزيز) جاء المسند إليه وهو (أنت) بعد نفى ، وهو (ما) وجاء المسند شبيهاً بالفعل وهو (بعزيز) فتقديم المسند إليه هنا يفيد التخصيص ، إذ ليس غرض قومه أن ينفوا العزة عنه فحسب ، بل إن لهم غرضاً آخر ، وهو أن يثبتوها لرهطه وقومه ، ولو قالوا : ما عززت ، لذهبت هذه الفائدة. ومنه قوله تعالى : (يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها) (٧)، فليس الغرض منه نفى خروجهم من النار فحسب ، بل إثبات أن غيرهم يخرجون منها

الخامس : تقوية الحكم : ونعنى بتقوية الحكم : تأكيده والتنبيه على صدقه وأحقيته ، وله صورتان :

الأولى : أن يدخل النفى على المسند ، ويكون المسند فعلاً . ومن هذه الصورة قوله تعالى : ((والذين بربهم لا يشركون) (٨)، فهو أبلغ من قوله : والذين لا يشركون بربهم .ومنه قوله تعالى : (ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) (٩) . وهذه الصورة قد تفيد التخصيص مع تقوية الحكم إذا دلت القرائن على ذلك فمثلاً قوله سبحانه : (إن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء) (١٠)، يفيد تقوية الحكم والتخصيص ، لأن غير الله يخفى عليه ما فى السموات والأرض ، والله وحده هو الذى لا يخفى عليه شئ

الصورة الثانية : أن يكون المسند إليه مثبتاً لا منفياً ، ويكون المسند فعلاً. منه قوله تعالى : (ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) (١١)، فالمسند إليه (هم) جاء مثبتاً لا منفياً ، وجاء المسند فعلاً (يعلمون) فأفاد تقوية الحكم وتأكيده والتنبيه على صدقه وأحقيته .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٥٧ . (٢) سورة الأحزاب الآية ٦ .(٣) سورة البقرة الآية ٢٦٨ .

(٤) سورة غافر الآية ٤٦ .(٥) علوم البلاغة للمراغى ، كتاب البلاغة فنونها وأفنانها علم المعانى للدكتور فضل عباس ص ٢١٩،٢٢٣

(٦) سورة هود الآية ٩١. (٧) سورة المائدة الآية ٣٧.(٨) سورة المؤمنون الآية٥٩.

(٩) سورة العنكبوت الآية ٥٣ . (١٠) سورة آل عمران الآية ٥ .

(١١) سورة آل عمران الآية ٧٥ .

وهذه الصورة تفيد التخصيص مع تقوية الحكم إذا دلت القرائن على ذلك : مثل قوله تعالى : (والله خلقكم ثم يتوفاكم) (١)، وقوله : (والله جعل لكم من بيوتكم سكناً) (٢)، وقوله : (والله جعل لكم مما خلق ظللاً) (٣)، وقوله : (هو اجتباكم) (٤)، وقوله : (والله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً) (٥).فالمسند إليه فى هذه الآيات جميعها أفاد التخصيص مع تقوية الحكم ، لأن الله وحده هو القادر على كل هذه الأفعال لا غيره .منها قوله تعالى حكاية عن الملائكة: (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك)(٦)،أى نسبيحا دائما لا تقصير فيه ولا انقطاع ،وهذا التسبيح خاص بالملائكة قال الآلوسى : وتقديم إلية على المسند يفيد الاختصاص(٧) .

النوع الثانى: تقديم المسند وأغراضه: المسند حقه التأخير عن المسند إليه ، كا تأخير المفعول ، والحال، والجار ،والمجرور ،والظرف عن الفعل ،وتأخير الخبر عن المبتدأ، ولكن قد يقدم المسند لأغراض منها:

الأول :الاختصاص:ـ

وذلك بتقديم المفعول ،والخبر ،والظرف ،والجار والمجرور، ونحوها على الفعل.(٨)كقوله تعالى : (إياك نعبد)(٩)، أى تخصك بالعبادة، فلا نعبد غيرك.وقوله تعالى : (إن كنتم إياه تعبدون)(١٠) ، أى إن كنتم تخصونه بالعبادة. وقوله تعالى : (من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) (١١) ، قال النسفى: وتقديم الظرف فى الموضوعين ، للدلالة على أن ضرر الكفر لا يعود إلا على الكافر ،ومنفعة الإيمان والعمل الصالح ترجع إلى المؤمن لا تجاوزة(١٢) وقوله : (إن إلينا إيابهم .ثم إن علينا حسابهم)(١٣) وقوله: (وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله) (١٤)، وقوله : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (١٥). وقوله : (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها)(١٦) ، وقوله : (وإذ ابتلى إبراهيم ربه)(١٧) ،فكلها تفيد التخصيص، لأن المسند، وهو المفعول ، قد تقدم على المسند إليه، وهو الفاعل. قال النسفي فى قوله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) : وتقديم اسم الله تعالى ، وتأخير العلماء ، يؤذن بأن معناه: إن الذين يخشون من عباده العلماء دون غيرهم، ولو عكس لكان المعنى :أنهم لا يخشون إلا الله ، كقوله : (لا يخشون أحداً إلا الله)(١٨)، و بينهما تغاير ، ففي الأول بيان أن الخاشين هم العلماء ، وفى الثانى بيان أن المخشى منه هو الله تعالى)(١٩) . ومنه قوله تعالى : (فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر)(٢٠)، وقوله : (خذوه فغلوه. ثم الجحيم صلوه . ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه)(٢١) ،وقوله : (ونوحا هدينا من قبل)(٢٢) وقوله : (والقمر قدرناه منازل)(٢٣) ، فهذه الأمثلة يدل تقديم المفعول فيها أعلى الاختصاص.

---

(١) سورة النحل الآية ٧٠ . (٢) سورة النحل الآية ٨٠ . (٣) سورة النحل الآية ٨١ .
(٤) سورة الحج الآية ٧٨ . (٥) سورة الزمر الآية ٢٣. (٦)سورة البقرة الآية ٣٠
(٧) روح المعانى للألوسى ١ / ٢٢٢. (٨)البرهان ٣ / ٢٧٧. (٩) سورة الفاتحة الآية ٥.
(١٠) سورة النحل الآية ١١٤. (١١) سورة الروم الآية ٤٤. (١٢) مدارك التنزيل للنسفى ٣/ ٢٧٦.
(١٣) سورة الغاشية الآية ٢٥،٢٦. (١٤) سورة الحشر الآية ٢. (١٥) سورة فاطر الآية ٢٨.
(١٦) سورة الحج الآية ٣٧. (١٧) سورة البقرة الآية ١٢٤. (١٨) سورة الأحزاب الآية٣٩.
(١٩) مدارك التنزيل ٣ /٣٤٢. (٢٠) سورة الضحى الآية ٩، ١٠. (٢١) سورة الحاقة الآية ٣٠-٣٢.
(٢٢) سورة الأنعام الآية ٨٤. (٢٣) سورة يس الآية ٣٩.

وتقديم الخبر (المسند) على المبتدأ(المسند إليه) نحو قوله تعالى : (فلله الحمد)(١)، أى أن الله وحده الذى يستحق الحمد لا غيره ، ومثله قوله : (لله الأمر)(٢) ومنه قوله تعالى فى وصف خمر الجنة : (لا فيها غول)(٣) فتقديم المسند وهو الجار والمجرور ، يفيد التخصيص ، فمعنى (لا فيها غول) نفى للغول عن الخمر الآخرة ، وإثباته فى خمر الدنيا .ومنه قوله تعالى : (لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيدا)(٤) قال الزركشى : (أخرت صلة الشهادة فى الأول ، وقدمت فى الثانى ، لأن الغرض فى الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفى اختصاصهم يكون الرسول شهيدا عليهم)(٥)

الثانى : التنبيه على الخبرية:ـ من أغراض تقديم المسند ، التنبيه على أنه خبر، حتى لا يلتبس بالصفة ، لأن الخبر أقوى فى دلالته من الصفة ، فهو ركن فى الجملة ، والصفة ليست كذلك ، فإذا قدم المسند دلّ على الخبرية ، لأن الخبر قد يتقدم على المبتدأ، والصفة لا تتقدم على الموصوف ، فكان ذلك أقوى فى الدلالة على شأنه وخطره ، أكثر من كونه صفه من الصفات ،(٦) ومن ذلك قوله تعالى : (ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين)(٧)،وقوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة)(٨).

الثالث: التشويق: قد يقدم المسند تشويقا لذكر المسند إليه. ومنه قوله تعالى: (ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)(٩)، قال أبو السعود: (وتقديم فريقا فى الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر)(١٠). ومنه قوله تعالى : (لهم فى الدنيا خزي ولهم فى الآخرة عذاب عظيم)(١١). قال أبو السعود : (وتقديم الظرف فى الموضوعين للتشويق إلى ما يذكر بعده من الخزي والعذاب ،لما مر من أن تأخير ما حقه التقديم ،موجب لتوجه النفس إليه ، فيتمكن فيها عند ورده فضل تمكن)(١٢). ومن ذلك قوله تعالى : (ولكم فى القصاص حياة)(١٣). ومنه قوله تعالى : (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم)(١٤) . قال أبوالسعود: (وتقديم الظرف على القائم مقام الفاعل لما مر مرارا من التشويق ،فإن ما حقه التقديم إذا أخر ،تبقى النفس مترقبة إلية ، فيتمكن عندها وقت ورده فضل تمكن)(١٥). ومنه قوله تعالى : (واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا)(١٦). قال أبو السعود : (وتقديم المجرورين على المفعول الصريح لإظهار الاعتناء بهما وإبراز الرغبة فى المؤخر بتقديم أحواله ، فإن تأخير ما حقه التقديم عما هو من أحواله المرغبة فيه ، كما يورث شوق السامع إلى وروده ، ينبىء عن كمال .

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٦. (٢) سورة الروم الآية ٤. (٣) سورة الصافات الآية ٤٧.
(٤) سورة البقرة الآية ١٤٣. (٥) البرهان ٣ / ٢٧٧.
(٦)انظر: كتاب: البلاغة فنونها وأفنانها ، علم المعانى ص ٢٣٨.
(٧) سورة البقرة الآية ٣٦. (٨) سورة البقرة الآية ١٧٩. (٩) سورة البقرة الآية ٨٧.
(١٠) إرشاد العقل السليم ١ / ١٢٧. (١١) سورة البقرة الآية ١١٤. (١٢) إرشاد العقل السليم ١ / ١٤٩.
(١٣) سورة البقرة الآية ١٧٩. (١٤) سورة البقرة الآية ١٨٧.
(١٥) إرشاد العقل السليم ١ / ٢٠١. (١٦) سورة النساء الآية ٧٥

رغبة المتكلم فيه واعتنائه بحصوله لا محالة ، وتقديم اللام على من للمسارعة إلى إبراز كون المسئول نافعا لهم مرغوبا فيه لد يهم)(١).

الرابع : تعجيل المسرة:ومنة قوله تعالى : (الذى جعل لكم الأرض فراشا)(٢). فقدم المسند لتعجيل المسرة . قال أبو السعود : (وتقديمه على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ، ببيان كون ما عقبة من منافع للمخاطبين ، وللتشويق إليه ، لأن النفس عند تأخير ما حقه التقديم ، لاسيما بعد الإشعار بمنفعته مترقبة له، فيتمكن لديها عند وروده عليها أفضل تمكن ، أو لما فى المؤخر وما عطف عليه من نوع طول، فلو قدم لفات تجاوب أطراف النظم الكريم)(٣).ومنه قوله تعالى : (هو الذى جعل لكم ما فى الأرض جميعا)(٤). قال أبو السعود : (وتقديم الظرف على المفعول الصريح لتعجيل المسرة ، ببيان كونه نافعا للمخاطبين ، وللتشويق إليه ، كما سلف ، أى خلف لأجلكم جميع ما فى الأرض من الموجودات لتنتفعوا بها فى أمور دينكم ،أو بالواسطة وأمور دينكم بالاستدلال بها على شئون الصانع تعالى شأنه، والاستشهاد بكل واحد منها على ما يلائمه من لذات الآخرة وآلامها ، وما يعم جميع ما فى الأرض)(٥).

النوع الثالث : تقديم الاستفهام

أولا: الاستفهام الحقيقي : يرى جمهور علماء البلاغة أن الذى يلى همزة الاستفهام هو المشكوك فيه والمسئول عنه، فإذا كان الشك فى الفاعل قدم كقولهم : أأنت بنيت البيت ؟إذا كان فعل البناء قد تم ، ولكنهم شكوا فى الذى بناه ، ومنه قوله تعالى حكاية عن قوم إبراهيم لإبراهيم : (أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)(٦) ، فإن الأصنام قد حطمت ، ولكن وقع الشك فى الفاعل ، فقدم لأنه المشكوك فيه ، والمسئول عنه ، فلا يجوز أن يقال : أفعلت هذا بآلهتنا ؟ وإذا كان الشك فى الفعل قدم ، فيقولون : أبنيت البيت الذى أزمعت على بنائه؟ ، فهم لا يجهلون الفاعل ، ولا يسألون عنه ، ولكنهم يجهلون الفعل ، فقدموه لأنه المسئول عنه(٧). يقول الجرجاني: إذا قلت :أفعلت ؟ فبدأت بالفعل كان الشك فى الفعل نفسه ، وكان غرضك من استفهامك أن تعلم وجوده ، وإذا قلت :أأنت فعلت ؟ فبدأت بالاسم ، كان الشك فى الفاعل من هو وكان التردد فيه(٨).

ثانيا: الاستفهام التقريري : وهو كالاستفهام الحقيقى ، يجب أن يلى المقرر به الهمزة ، فإذا أردت أن تقرر بالفعل قدمته ، وإذا أردت أن تقرر بالاسم قدمته (٩). وقد جعل الإمام عبد القاهر الجرجانى (١٠)، والسكاكى (١١)، وبدر الدين بن مالك،(١٢) قوله سبحانه : (قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم)(١٣)،من هذا الباب ، أى الاستفهام التقريرى. قالوا: فإنهم أرادوا أن يقرروه بأنه هو الفاعل ، لا بأن الفعل قد حصل ، لأن الفعل- وهو كسر الأصنام- ظاهر مشار إليه- فلا معنى للتقرير به،

---

(١) إرشاد العقل السليم ٢ / ٢٠٢. (٢) سورة البقرة الآية ٢٢.
(٣) إرشاد العقل السليم ١ / ٦١. (٤) سورة البقرة الآية ٢٩. (٥) إرشاد العقل السليم ١ / ٧٨.
(٦)انظر : كتاب : دلائل الإعجاز للجرجانى صـ ٨٨ ونهاية الإيجاز للرازى صـ١١٧ والإيضاح للقزوينى صـ٨١ ، والمطول على التلخيص للتفتازانى صـ٢٢٦. (٧) سورة الأنبياء الآية ٦٢.
(٨) دلائل الإعجاز صـ٨٨. (٩)انظر : كتاب :دلائل الإعجاز صـ٨٩، والإيضاح صـ٨١، والمطول على التلخيص صـ ٢٣٦.
(١٠) دلائل الإعجاز صـ٨٩.
(١١) مفتاح العلوم للسكاكى طبعة المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧هـ
(١٢)المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع له صـ٤٥ طبعة المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٤١هـ
(١٣) سورة الأنبياء الآية ٦٢.

ولأنه لو كان الغرض التقرير بالفعل لكان الجواب (فعلت أو لم أفعل) ولكنة أجاب بنفسه الفعل إلى كبيرهم ، نفيا لما طلبوه من نسبة الفعل إليه دون غيره، فدل ذلك على أن المطلوب التقرير بالفاعل لا بالفعل. وقد اعترض الخطيب القزوينى على هذا المثال بقوله : (فإنه يجوز أن يكون استفهاما حقيقيا ، لأنه لم يقم دليل على أنهم كانوا يعلمون أنه هو الفاعل، وشرط التقرير العلم)(١). والفرق بين التقرير بالفعل والتقرير بالفاعل : أنك إذا قدمت الفعل فقلت (أسرقت؟) فإنك تقرره بحصول السرقة منه ، من غير تعرض لغيره ،فجائز أن يكون غيره سرق ،وجائز ألا يكون، وإذا قدمت الاسم فقلت (أأنت سرقت) فأنت تقرره أنه السارق دون غيره)(٢).وعلى هذا فتقديم الاسم يفيد التخصيص.

ثالثا : الاستفهام الإنكاري : وهو كسابقيه ، يجب أن يلى فيه المنكر الهمزة ،فيكون مقدما فى الكلام (٣). فإذا كان الغرض إنكار الفعل على الإسم، قدم الفعل على الاسم .ومن ذلك قوله تعالى : (أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثا)(٤)، وقوله سبحانه : (اصطفى البنات على البنين)(٥)، فهذا تكذيب للمشركين ، ورد لما يفترونه ،مما يؤدى إلى الجهل العظيم ، فإنهم يزعمون أن الملائكة إناث ، وأنهم بنات الله ، وهذا يستلزم أن الله اصطفاهم ، واختصهم بالبنين ، الذين هم الصفوة ، واختار لنفسه النوع الأدنى ،وأنه تعالى قد فضل البنات على البنين ، فكذبهم فى كلا الأمرين ،(أى لم يكن هذا ولا ذاك)(٦). ومنه قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام لقومه : (أرأيتم إن كنت على بينه من ربى وآتاني رحمة عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)(٧) .أى أنكرهكم على الاهتداء بها ، والمعنى لا يكون ذلك (٨). وإذا كان الغرض إنكار الاسم ،قدم الاسم على الفعل ، من ذلك قوله تعالى : (أفغير دين الله يبغون)(٩)، قال البيضاوى : وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإنكار(١٠) . ومنه قوله تعالى : (أغير الله أتخذ وليا) (١١) ، وقوله : (أغير الله تدعون)(١٢)، فليس الإنكار موجها إلى اتخاذالولى أو إلى الدعاء ، وإنما هو موجه إلى أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذ وليا، أو أن يدعى ، فإن ذلك لا يرضى به عاقل ، ولو قدم الفعل فى ذلك ،لتوجه الإنكار إليه، وكان المعنى نفى حصولهم ، ولم يفد فى المفعول ذلك المعنى الذى أفاده تقديم المفعول (١٣). ومن هذا القبيل أيضا قوله تعالى : (أبشرا منا واحدا نتبعه)(١٤) ، أنكروا أن يكون البشر مما يصح اتباعه ، وتجب طاعته، وأن يكون مبعوثا من عند الله ، فإنهم كانوا ينكرون ذلك ، ويرون أن الرسول يجب أن يكون ملكا،(١٥) بدليل قولهم (إن أنتم إلا بشر مثلنا)(١٦)، وقولهم : (ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة)(١٧)

---

(١)الإيضاح صـ٨٢. (٢)انظر :كتاب دلائل الإعجاز صـ٨٠ ، ونهاية الإيجاز صـ١١٨.
(٣)انظر :كتاب: دلائل الإعجاز صـ٩٠، ونهاية الإيجاز صـ١١٨ ومفتاح العلوم صـ١٧٠.والمصباح لبدر الدين بن مالك صـ٤٤، والإيضاح صـ٨٢. (٤) سورة الإسراء الآية ٤٠.
(٥) سورة الصافات الآية ٥٣. (٦)انظر تفسير الكشاف للزمخشرى ٣ / ٣٥٤ ،ودلائل الإعجاز صـ٧٨.
(٧)سورة هود الآية ٣٨. (٨)انظر :دلائل الإعجاز صـ٨٠ والكشاف ٢ / ٢٦٦ ، ونهاية الإيجاز ص١١٨
.(٩) سورة آل عمران الآية ٨٣. (١٠) أنوار التنزيل له ٢ / ٥٩ ، وتفسير فتح القدير للشوكانى ١ / ٣٥٧.
(١١) سورة الأنعام الآية١٤. (١٢) سورة الأنعام الآية ٤٠.
(١٣) دلائل الإعجاز صـ٨٢،والكشاف ٢ / ٨، ١٨ ومفتاح العلوم صـ١٧٠.والإيضاح صـ٨٢.
(١٤) سورة القمر الآية ٢٤. (١٥)انظر دلائل الإعجاز صـ٨٣ ، والكشاف ٤ / ٣٩، ومفتاح العلوم صـ١٧٠،والإيضاح صـ٨٢. (١٦) سورة ابراهيم الآية ١٠. (١٧) سورة المؤمنون الآية ٢٤.

ويرى علماء البلاغة : أن لإنكار الفعل بطريق الاستفهام إنكارا تكذيبا صورتين:

الأولى: أن يقع عقبها كالأمثلة التى تقدمت.

الثانية: أن ينحصر فاعل الفعل ، أو مفعوله أو غيرهم من متعلقاته فى واحد أو أكثر ، فيؤتى بذلك

الفاعل ، أو المفعول ،أو غيرهما من المتعلقات عقب الهمزة ، ويعطف عليه غيره بـ (أم) إن وجد ، فيتوجه الإنكار إلى الاسم المقدم ،بحسب الظاهر ، فيلزم من إنكاره إنكار الفعل ،لأن الفعل إذا نفى فاعله ،الذى لا فاعل له غيره ، أو مفعوله الذى لا مفعول له غيره ،أو ظرفه الذى ،لا ظرف له غيره، لزم انتفاؤه حتما ، وهذه الصورة أبلغ من سابقتها ، لأن نفى الفعل فيها بطريق الكناية واللزوم، فهى بمثابة دعوى مع دليلها.

ومن شواهد هذه الصورة ،قوله تعالى : (قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراما وحلالا قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون)(١)، فالمقصود نفى الإذن من أصله ،فإنه لا أذن فى التحليل والتحريم إلا الله ، فإذا نفى أن يكون الله أذنا ، فقد انتفى الإذن ، وأخرج الكلام على هذه الصورة – أى صورة نفى الفاعل لا الفعل ،ليكون أبلغ.

وقوله تعالى : (آلذكرين حرم أم الأنثيين أما اشتلمت عليه أرحام الأنثيين)(٢).

فالمقصود نفى الفعل – وهو التحريم لشىء مما ذكر – ولكن لم يقدم الفعل عقب الهمزة ، بل أخرج الكلام فى صورة نفى المفعول ، دون الفعل ، ليكون أبلغ فى نفى الفعل ،فإن نفيه حينئذ ، يكون بطريق الكناية واللزوم ، وذكر الدعوى مع دليلها ، كأنه قيل : لو كان هناك تحريم لكان متعلقا بواحد من هذه الأمور ، لكن واحدا منها ليس بمحرم، فليس هناك إذن تحريم، وذلك أنهم كانوا تارة يحرمون ذكور الأنعام ، وتارة إناثها ، وتارة ما فى بطون الإناث ، ذكورا كانت ، أم إناثا، أم مختلفة ،وينسبون ذلك إلى الله ، فرد الله عليهم إفكهم ،بإنكار محل التحريم(٣).

والخلاصة أن الهمزة تدخل على المسئول عنه ،سواء كان الاستفهام حقيقيا أم تقريريا أم إنكاريا ، فإذا كان الشك فى الاسم قدمناه ،فنقول : أأنت فعلت كذا؟ وإذا كان الشك فى الفعل قدمناه ، فنقول : أفعلت كذا؟ وكذلك إذا أردنا تقرير الفعل أو إنكاره بدأنا به بقولنا : أفعلت كذا؟ وإذا أردنا تقرير الاسم أو إنكاره بدأنا به بقولنا :أأنت فعلت كذا؟(٤)

---

(١) سورة يونس الآية ٥٩. (٢) سورة الأنعام الآية ٤٤.

(٣) انظر: كتاب دلائل الإعجاز ص٧٨، ونهاية الإيجاز ص ١١٨ ، ومفتاح العلوم ص١٧٠، والإيضاح ص ٨٣.

(٤) انظر : كتاب أسرار التقديم والتأخير للدكتور محمود السيد شيخون ، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٣هـ.

رابعاً : الخاتمة

في نهاية هذا البحث ، أخلص إلى النتائج التالية:

١- أن القدماء لم يهتموا بالتقديم والتأخير ، حيث كان الناس يتحدثون عنه حديثاً عاماً ، فيقولون فى كل شئ قدم، أنما قدم للاهتمام به ، ويقولون في كل شئ أخر .إنما أخر للتشويق .

٢- يرجع الفضل فى وضع قواعد هذا الفن ، واكتشاف معظم أسراره ولطائفه ، لإلى شيخ البلاغة العربية ، الإمام عبد القاهر الجرجانى ،فى كتابه : (دلائل الإعجاز).

٣- إن مما يعين على تذوق هذا الفن ، والوقوف على دقائقه وأسراره ، الإلمام بقواعد اللغة العربية ، والوقوف على أسباب الكلام فيها .

٤- إن دراسة هذا الفن ، والوقوف على أسراره ودقائقه ، من أقوى الوسائل الموصلة إلى معرفة سر الإعجاز فى القرآن الكريم .

٥- إن كل جملة بل إن كل لفظه فى القرآن الكريم إنما جاءت فى موضعها ، دون الحاجة إلى القول بأنها من المقدم الذى معناه التأخير ، أو أنها من المؤخر الذى معناه التقديم، لأن ذلك يُذهب سر إعجاز النظم القرآنى ، فهى إنما أخرت أو قدمت لأجل أسرار بلاغية ، اقتضاها السياق ومناسبة الكلام .

٦- قد يكون للتقديم سببان فأكثر ، فإما أن يعتقد إعادة الكل ، أو يرجح بعضها لكونه أهم فى ذلك المحل ، وإن كانت الأخرى أهم فى محل أخر ، وإذا تعارضت الأسباب روعى أقواها،فإن تساوت كان المتكلم بالخيار فى تقديم أى الأمرين شاء .

٧- قد يقدم لفظ فى موضع ويؤخر فى أخر ، ونكتة ذلك إما لكون السياق فى كل موضع يقتضى ما وقع فيه ، وإما لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه ، وإما لقصد التفنن فى الفصاحة ، وإخراج الكلام على عدة أساليب .

وفى الختام:أسأل الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن يتقبل منى هذا العمل ، ويجعله خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يقبل عثرتي ، ويغفر زلتى ، إنه سميع مجيب، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

الدكتورة/ صبرة الحسينى مرسى

أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات

جامعة الأزهر – القاهرة

١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥م

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم

٢- الإتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى طبعة دار الفكر بيروت ١٤٢٣ هـ .

٣- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبى السعود العمادى – طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت.

٤- أسرار التقديم والتأخير لمحمود السيد شيخون – مكتبة الكليات الأزهرية ١٤٠٣ هـ .

٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل للإمام البيضاوى – طبعة دار الفكر – بيروت ١٩٩٦ هـ .

٦- الإيضاح للقزوينى – مطبعة محمد صبيح بالقاهرة ١٣٨٥ هـ .

٧- البرهان فى علوم القرآن للزركشى – طبعة دار الفكر – بيروت ١٤٢١ هـ .

٨- البلاغة والتحليل – أنطوان مسعود البستانى – دار الشروق بيروت ١٩٨٦

٩- البلاغة فنونها وأفنانها لمحمد شعبان علوان طبعة ١٩٩٨ م .

١٠- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير – دار الفكر – بيروت ١٤٠١ هـ.

١١- جامع البيان فى تأويل آى القرآن لابن جرير الطبرى – دار الكتب العلمية بيروت ١٤١٢ هـ .

١٢- الجامع لأحكام القرآن للقرطبى – دار الفكر – بيروت ١٤١٤ هـ .

١٣- درة التنزيل وغرة التأويل لعبد الله بن محمد الخطيب الإسكافي – دار الكتب العلمية بيروت١٤١٦

١٤- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى مطبعة القاهرة ١٣٨١ هـ .

١٥- روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى – دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٤ هـ .

١٦- زاد المسير فى علم التفسير لبن الجوزى – المكتب الإسلامي – بيروت .

١٧- علوم البلاغة للمراغى – دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢٢ هـ .

١٨- فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية فى علم التفسير للشوكانى دار الفكر بيروت ١٤٠٧ هـ .

١٩- الفصول المفيدة فى الواو المزيدة لابن كيكلدى العلائى – دار البشير عمان ١٩٩٠ م .

٢٠- الكتاب لسيبوية المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٣١٦ هـ .

٢١- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل للزمخشرى .

٢٢- المسند للإمام أحمد بن حنبل – مؤسسة قرطبة .

٢٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفى – دار الشعب .

٢٤- المصباح فى علم المعانى والبيان والبديع لبدر الدين بن مالك الأندلسى الطائي – المطبعة الخيرية بالقاهرة ١٣٤١ هـ .

٢٥- معالم التنزيل للبغوى – دار المعرفة – بيروت ١٤٠٧ هـ .

٢٦- مفاتيح الغيب للفخر الرازى – دار إحياء التراث العربى بيروت .

٢٧- مفتاح العلوم لأبى يعقوب السكاكى – المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ هـ .

٢٨- من بلاغة القرآن لأحمد أحمد بدوى – مطبعة النهضة . بمصر ١٣١٧هـ .

٢٩- من بلاغة القرآن لمحمد شعبان علوان طبعة ٢ ، ١٩٩٨ .

٣٠- نهاية الإيجاز ودراية الإعجاز لفخر الدين الرازى – المطبعة الأدبية بالقاهرة ١٣١٧ هـ .

٣١- الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز للواحدى – دار القلم – دمشق

فهرس الموضوعات

الموضوع
المقدمة
أهمية الموضوع
أسباب التقديم والتأخير .
أنواع التقديم والتأخير وأغراضه .
النوع الأول : تقديم المسند إليه وأغراضه .
النوع الثانى : تقديم المسند تقديم وأغراضه .
النوع الثالث : تقديم الاستفهام وأغراضه .
الخاتمة.
المراجع والمصادر .
فهرس الموضوعات.